ان هذه الشركة اي شركة ترعة بناما تستحق اشدّ اعتبار الحكومة الفرنسوية لما فيها من الرجال العظام الذين يديرونها ولعظم العمل الذي تديرهُ والوسائط الكثيرة التي استخدمتها "لنجاحهِ". هذا والموسيو ده لسبس غير راضٍ بتقرير الموسيو روسو

والذين اختبروا هذه الاعمال ويحق لهم الحكم فيها لا يزالون مختلفين في امر هذه الترعة بعضهم يقول انها ستكمل و بعضهم انها ستُهمل وربما يتأكد احد القولين في السنة القادمة. والذين يرجحون اتمامها يقولون انهُ لو بلغت نفقاتها الثانوية الثاني مئة مليون فرنك اي ثلاثة امثال ما قُدِّر لها اولاً بل لو بلغت نفقاتها الفي مليون فرنك لبقي منها ربح كافٍ للمساهمين فان الاقتصادي الفاسور الفرنسوي قدَّر انهُ يربح الترعة سبعة ملايين ومئتان وخمسون الف طن في السنة فاذا قُدِّر انهُ يُؤخذ على الطن ١٥ فرنكًا فالدخل السنوي يبلغ ١٠٨٧٥٠٠٠ فرنك فاذا بلغت النفقات السنوية ثلاثة ملايين فرنك يبقى ربح للمساهمين قدرهُ ١٠٥٧٥٠٠٠ اي اكثر من مئة وخمسة ملايين فرنك او اكثر من خمسة في المئة وهو ربح طائل في هذا الزمان

الانتقاد

الانتقاد لغةً النظر في الدراهم وغيرها لمعرفة جيدها من رديئها وصحيحها من زائفها ومنهُ انتقاد الكلام لتمييز فاسدهِ من صحيحهِ وغثهِ من سمينهِ. والانتقاد عند كتبة هذه الايام فنٌّ اشتغل بهِ كثيرون من ذوي العقول السامية والبصائر الثاقبة من اهل العلم والادب من عجم وعرب. وهو غير التحطئة في ذاتهِ وغايتهِ ويغلط من يظنُّ انهما سيّان فالتحطئة في عرف كتّاب هذه الايام كشف اغلاط الكاتب ونسبة الخطإ اليهِ قصدَ تحقيرهِ وتذليلهِ بالانقاص من قدر اعمالهِ واشهار عيوبها وبذامّها لاخفاء محاسنها وجحد فضلهِ فيها. واما الانتقاد فهو النظر في ما يكتبهُ الكاتب لاظهار مليحهِ وقبيحهِ قصد تقديرهِ حق قدرهِ وتنبيه الكاتب الى ما احسن فيهِ ليزيدهُ حسنًا و برقّيه كمالاً والى ما اخطأ فيهِ ليصلحهُ وما قصَّر فيهِ ليكملهُ. وتنبيهِ القارىء ايضًا الى ما احسن فيهِ الكاتب واصاب لاتباعهِ فيهِ والى ما اخطأ فيهِ او لم يحسن لاجتناب الوقوع فيهِ. فالتحطئة مستقبحةٌ في ذاتها لاقتصارها على اظهار الاغلاط مذمومةٌ في غايتها اذ القصد منها التذليل والتنكيل بخلاف الانتقاد فانهُ حسنٌ في ذاتهِ لاظهارهِ محاسن الاعمال ومعايبها حميدٌ في غايتهِ اذ القصد منهُ افادة الكاتب والقارىء معًا. ولذلك كان الجور والظلم صفة التحطئة والعدل والانصاف صفة الانتقاد

قلنا ان الانتقاد فنٌّ والذي قرأ كتب المتقدمين يعلم ان مدارهُ على الفنون الجميلة[1] خصوصًا وسائر الفنون والعلوم عمومًا وان الذين اشتغلوا فيوم اناس من أبعد اهل الارض صيتًا وأمضاهم قلمًا وأشدهم ذكاء تفتخر بهم شعوبهم افتخارها بآثارها وآثارها وتضرب الامثال بعلمهم وذكائهم وتشيد التماثيل وتقيم الانصاب حفظًا لاسمهم وتخليدًا لذكرهم . ألا ترى ان اشهر الذين خُلِّد ذكرهم عند العرب هم الذين قالوا في انتقاد الشعر واجادتهِ حتى ابلغوهُ ما بلغ اليهِ في ايام زهوتهم وكذلك الشرّاح والمفسرون الذين قالوا في نقد المعاني والالفاظ تدقيقًا وتمييزًا . واذا سألت عن منتقدي العجم وجدت انهم نخبة كتّابهم وفطاحل مؤلفيهم وعلمائهم وأشهر من امتلك نواصي العقول فيهم[2] . ولا يستغرب العاقل ذلك متى علم لزوم الانتقاد لترقية العلوم والفنون في مراقي الكمال والجمال. فانهُ لما كان الترقي غاية هذا الكون كانت قيمة الاعمال تقدَّر بالنظر الى هذه الغاية . والانتقاد لازم لترقية ما ينتقد من علوم البشر وفنونهم وصناعاتهم وآرائهم وهذا هو سرُّ اعتبار الناس لذويهِ واعترافهم بفضلهِ

واما لزوم الانتقاد لترقية علوم البشر وفنونهم وصناعاتهم وعاداتهم ونحوها فبتبين من النظر الى الوجه الذي يتمُّ الانتقاد عليهِ وذلك ان كل طائفة من طوائف البشر تدرك للصواب والكمال والجمال غايةً تتوخاها في افعالها واعمالها واقوالها . فالمصوّرون يتفاوتون في جمال ما يصوّرون بتفاوت صورهم في القرب والبعد من غاية الجمال التي يحدُّها تصوُّر كلٍّ منهم . وكذا الشعراء والخائنون وغيرهم من اهل الفنون والصناعات . والغرض من الانتقاد بيان ما قرب من غاية الجمال والكمال ومدحهُ وتحسينهُ حتى يتحرّاهُ كل طالبٍ وما بَعُدَ عن تلك الغاية وذمّهُ وتهجينهُ ليجتنبهُ الطالب . وبهذا التحرّي للمليح والاجتناب للقبيح تتحسَّن صناعات البشر وتراقي شيئًا فشيئًا في مراتب الجمال والكمال الى ما شاء الله

واذا علمت ان للبشر صورًا غائيّة للجمال والكمال والجلال يقاس بها جمال اعمالهم وكمال اقوالهم وافعالهم وان الغرض من الانتقاد حثهم على البلوغ الى تلك الصور الغائيّة علمت ان الفائق في الانتقاد فائقٌ في امرين قوّة التمييز والنقد وسموّ الصورة الغائيّة المرتسمة على صفحات ذهنهِ . فاذا اعمل القلم في انتقاد مؤلَّف مثلاً ميّز احسن التمييز بين محاسنهِ ومعايبهِ وقاسها

---

(١) الفنون الجميلة خمسة وهي الشعر والموسيقى والتصوير والنقش والبناء

(٢) من اشهر المنتقدين عند اليونان والرومان ارسطوطاليس وهوراشيوس وكونتليانوس ومن مشاهيرهم عند الانكليز دريدن وبوب وجنصن وكولردج وهزلت ومكنتوش وهلّام وبررام ومكولي. وعند الفرنسويين بوالو وفولتير وسان بوف وتين . وعند الالمانيين لسن وغوته وشليغل وكت. وتزداد المنتقدون عندهم في هذه الايام حتى اصبح ذكرهم بطول وعدّهم بتعذر

على صورة الحسن التام المتجلية اذهاننا فانزلها في منزلتها وقدّرها حقّ قدرها . وتكون نتيجة ذلك ان ما يلي هذا المؤلّف من بابه يفوقه في المحاسن ويقلّ عنه في المعايب ويزيد عليه قربًا الى غاية الحسن والكمال وذلك عين الارتقاء . فقد رأيت ممّا بسطناهُ لك ان الانتقاد طريق من اوسع طرق الارتقاء وان اربابهُ قادة الناس الى المراتب العليا من مراتب الكمال والجمال فلا عجب ان يعرف العقلاء قدرهم ويجلوا ذكرهم ويصدعوا بأمرهم

ولما كان الانتقاد لازمًا لارتقاء الناس في الفنون والصناعات كان لا بدّ منهُ في ما عاش ونما وارتقى منها وحيث كان الانتقاد مبتًا كان الفن ساكنًا لا حراك لهُ نحو التقدم ولا حياة لاهلهِ . وبهذا الاعتبار يصحّ الحكم على درجة القوم في الصناعات والفنون من النظر الى حال الانتقاد والمنتقدين عندهم . انظر الى العرب فانهم لما كانت المعارف زاهية عندهم وسوق النظم والنثر رائجة تجاروا في ميدان الانشاء والتأليف وتباروا في نقد التصانيف كما تشهد بذلك شروحهم التي لا تُعَدّ على متون جميع العلوم والفنون فانك لو تأمّلتها اوجدت المنزلة الاولى فيها للانتقاد بالمعنى المراد والمنزلة الثانية للتفسير والتوضيح ونحوهما . وانظر الى الافرنج تجد ذلك عندهم على غاية الابانة والظهور فانهم لما كان الجهل سادلاً براقعهُ على بصائرهم لم يبالوا بانتقاد ولم يهتموا بارقية الفنون ولا المعارف في كمالٍ ولا جمالٍ ثم لما هبّوا من سنة غفلتهم وحثوا جواد العقل لتحصيل العلوم والفنون وتسابقوا في مضمار التأليف وكثر منهم المؤلفون قام فيهم المنتقدون وتباروا في الانتقاد حتى ابلغوهُ مقامًا من ارفع المقامات وجعلوهُ فنًّا باصول واحكمُوهُ محلاً ساميًا بين الفنون وانشأوا لهُ الجرائد والمجلّات . وقد سبق الفرنسويون سواهم الى ذلك فانشأوا اوّل مجلّة للانتقاد منذ سنة ١٦٦٥ (٣) وقد توالت عليهم السنون وتكاثرت مجلّاتهم الانتقادية تكاثرًا عظيمًا ولم تزل في اسمى طبقةٍ بين المجلّات (٤) . واذا رُمت ان تعلم ما نجم عن ذلك من ترقي العلوم وتجمّل الصناعات والفنون فتأمّل علومهم عمومًا وفنونهم خصوصًا واذكر انهُ يضرب بهم المثل في حسن الذوق وصراحة الانشاء ولطف الصناعة ودماثة الاخلاق وحسن المعاشرة . واما الانكليز فانشأت جمعيتهم الملكيّة الفلسفيّة اوّل مجلّةٍ (٥) لهم لنشر المقالات المبتكرة واعلان المؤلفات الجديدة وذلك سنة ١٦٦٥ . وثاني مجلّة (٦) انشأوها سنة ١٧٤٩ افرزوا فيها للنقد محلاً رحبًا وثالث مجلّةٍ انشأوها سنة ١٧٥٦ افردوها للانتقاد وسموها المنتقد (٧) وتكاثرت

(٣) واسمها Journal des Savants اي جريدة العلماء

(٤) وشاهد ذلك المجلة المعروفة عندهم باسم Revue des Deux Mondes

(٥) Philosophical Transactions of the Royal Society.

(٦) Monthly Review. (٧) Critical Review.

بعد ذلك مجلّات الانتقاد عندهم حتى انشأ الاسكتلنديون مجلتهم الانتقادية الشهيرة المعروفة باسم مجلة ايدنبرج سنة ١٨٠٢ وتلاهم الانكليز بمجلّة[٨] تضاهيها في قوة التمييز ودقة النقد. فنتج عن ذلك ان علمهم زاد اتساعًا وتحقيقًا وكتبهم الادبية ارتقت جودةً وتدقيقًا ومنار المعارف ارتفع بينهم ورايات علوم الادب نشرت عندهم. واما الالمانيون فتخلفوا في انشاء مجلّات الانتقاد عن سواهم وان كان المنتقدون فيهم من ابصر اهل الارض في وجوه النقد وادقهم في التمييز وابعدهم في النظر واوّل مجلّة انشأوها سمّوها مكتبة العلوم الجميلة[٩] واصدروها سنة ١٧٥٧ وقد سبقهم الايطاليون الى ذلك فانشأوا مجلتهم الانتقادية سنة ١٧١٠ وسمّوها جريدة العلماء[١٠]. والاميركيون اهل الولايات المتحدة انشأوا مجلّات للانتقاد اشهرها المجلّة الاميركية الشمالية[١١] سنة ١٨١٥ مع ان الاميركيين يستغنون عن انشاء الجرائد الخاصّة لو شاءوا فانهم انكليز بو الاصل واللغة يسهل عليهم قضاء حاجاتهم من الانتقاد في مجلّات الانكليز انفسهم

وقد كان هذا شأن كل أمة قامت قائمة العلوم والفنون فيها من انشاء المجلات الانتقادية وفتح ابواب الانتقاد في الجرائد وتأليف الكتب الانتقادية حتى انك لا تكاد تجد مؤلّفًا يؤلّف عند الافرنج الّا استهدف لسهام الانتقاد والمنتقدين من كل صوب وناحية. بل قد صارت عادتهم ان لا يُعرَض مؤلّف المبيع حتى يُعرَض على الجرائد للانتقاد فيسمع الناس به ويعرفوا قيمته. والمؤلّفون منهم ارغب الناس في توطيد دعائم الانتقاد وتقوية ساعد المنتقدين لعلمهم ان جل الفائدة منهُ عائدٌ عليهم فلذلك تراهم يرضخون لحكم المنتقد اخطأ (في اعتقادهم) او اصاب ويعتبرون انتقادهُ فضلاً عليهم وجميلاً معهم. واذا اقتضت الضرورة ان يردّوا عليهِ صدّوا الردّ بالاعتذار عن ذلك معترفين انهُ لا يجمل بالمؤلف مقاومة مَنْ ينتقد تأليفهُ ولاسيما اذا كان المُنتقِد جريدةً قد افردت للانتقاد بابًا. كل ذلك حرصًا على الانتقاد ان تخبو نارهُ وعلى هم المنتقدين ان تصاغر واعتراقًا بان الانتقاد حياة التأليف وسرُّ ارتقاء الفنون والصناعات

وأبلغ الكتّاب قلمًا واقومهم رأيًا واجزلهم لفظًا وارقهم نثرًا ونظمًا هم اشدُّ الناس عرضةً للانتقاد واستهدافًا لسهام المنتقدين. وقد يميل المنتقدون عليهم كل الميل ويتحاملون عليهم شديد التحامل فينتقي الكتّاب من انتقادهم ما اصابوا فيهِ ويغضون عمّا اخطأوا وكثيرًا ما ينقلون انتقادهم عليهم

(٨) Quarterly Review.
(٩) Bibliothek der schönen Wissenschaften.
(١٠) Giornale dei Litterati.
(١١) North American Review.

الى كتبهم إما اقرارًا بصحتهِ او اظهارًا لخطائهِ او لغير ذلك من الاغراض . ولبيان ذلك ننقل لك بعض ما ادرجهُ كارليل[١٢] الاسكتلندي الى بعض كتبهِ من نقد منتقديهِ . قال بعضهم اطّلعنا على هذا الكتاب فتبيّن لنا ان مصنّفهُ قليل الخبرة قبيح الاسلوب قاصر الذوق يحاول الهزل والملاحة في الكلام فيأتي بما يستثقلهُ الطبع وينفرهُ منهُ الذوق وينبو عنهُ السمع فهو يذكّر القارئ بذاك الامير الالماني الذي دخل زوّارهُ عليهِ فوجدوهُ يثب عن الموائد ويقفز على الكراسي فسألوهُ عن القصد من ذلك قال احببت ان اكون خفيف الروح لطيف المزاج فجعلت امرّن نفسي على ذلك . وقالت مجلّة فرازر الانتقادية هذا كتابٌ يصحّ فيهِ قول بعض الحكماء انهُ مستودع المذيان ومخزن الحماقة لكنهُ لا يخلو من عبارات تدلُّ على خصافة الرأي وحسن التعبير وقد تضمّن جملاً نفيسة لو قرأتها من ذنبها الى رأسها عكسًا اكثر مما لو قرأتها من رأسها الى ذنبها طردًا . وقالت أخرى ادّعى هذا الكتاب الدعاري الطويلة العريضة ولكنها ظهرت بعد التحقيق محض اختلاقٍ وتلفيق . هذا كلهُ وكاتب الكتاب اشهر اهل زمانهِ في الانشاء والتأليف . والمنتقدين من الافرنج اقوال لا تحصى اثقل من هذه وطأةً وأجفى منها تعبيرًا . وذلك وان كان تطرُّفًا وجزافًا يعاب في الانتقاد لكنّ المؤلفين وارباب الفنون والصناعات قد ألفوا الانتقاد حتى صاروا يتسامحون في مثل هذا التحامل ويغضون عن تهافت المنتقدين في كثير من الاحيان . ولذلك صار الصبر عندهم على حرّ الانتقاد يُتخذ دليلاً على عظمة النفس وسعة الادراك فيتصبّر من ليس كذلك طمعًا بان يوصف بالعظمة فيكون في صبرهِ فخرٌ لهُ

والانتقاد بين علماء الافرنج دليلٌ على رعاية المنتقِد لمقام المنتقَد عليهِ والاعتناء بشأنهِ . والتدقيق في الانتقاد دليل الاهتمام بقدر ما يُنتقَد . والراسخون في العلم والواسعون في الفهم يعتبرون تشديد المنتقد عليهم وتدقيقهُ في انتقاد مؤلّفاتهم مزيّةً لها ويفضّلون اظهارهُ لمعايبها على مجرّد مدحهِ لهم واطرائهِ عليها كما هي عادتنا نحن المشارقة في هذه الايام . واذا رأوا من المنتقد تساهلاً وتسامحًا ساءهم ذلك وحملوهُ محمل الاغفال لشأنهم والاستصغار لقيمة تأليفهم او لمقدار علمهم وقوّة عقلهم كما هي عادتهم في انتقاد تآليف النساء فانهم يتساهلون فيها ويتغاضون عن هفواتهنّ . ولذلك لمّا قامت مس ايفانس الكاتبة الانكليزية المشهورة التي بتزلّفها جماعة منزلة شاعرهم المجيد شكسبير وارادت ان تعرف قيمة مؤلفاتها وان تقف على اغلاطها وهفواتها تنكّرت واتخذت لنفسها اسم الرجال فتسمّت باسم جورج ألبوت وهو ما تُعرَف بهِ لهذا اليوم مع انها قد رقيت

(١٢) هو توماس كارليل اشهر كتبة الادب عند الانكليز في هذا القرن نبغ في صناعة الانشاء حتى صار لهُ بين ادباء الانكليز انشاءٌ مخصوص يسمونهُ انشاء كارليل ويضربون بحسنهِ الامثال

اسمى ذرى المجد وبلغ صيتها ابعد الاقطار . فالت بهذه الحيلة نفيها ووفاها المنتقدون حقوق الانتقاد ولاسيما جورج لوز الفيلسوف الانكليزي الشهير فانه لم يترك مليحًا في مؤلفاتها الا اشهرهُ ولا قبيحًا الا ذكرهُ . وكان ذلك باعثًا على المراسلة بينهما ثم افضى الى المودَّة فالحبّ فالشَّغف . ومثل جورج اليوت الانكليزية جورج سَنْد الكاتبة الفرنسوية الشهيرة انتحلت اسم الرجال لتفوز منهم بتبيين الفضل والنقص والحسن والقبح في مؤلفاتها . ولاشتداد ساعد النساء في التاليف وتبوغ جماعة منهنَّ وفضلهنَّ لكثيرين من المؤلفين والناقدين جعل الناقدون يوفون السابقات منهنَّ حقوق النقد و يمعنون النظر في كتبهنَّ

هذا و يتبيَّن لك مما سبق ان النقد الاوروبيين قد يخرجون عن شروط النقد الى ما تنقلب معهُ الفائدة ضررًا والحسنة سيِّئةً . وهذه آفة النقد المسوّغة لذمّهِ الحاملة على مجانبتهِ ومحاذرتهِ . فهو كالفضائل وسط بين رذائل فاذا ازم حدَّهُ حصلت منهُ الفائدة واذا خرج عنهُ الى تفريط او افراط نتجت عنهُ المضرَّة . وحتى يكون النقد على حقهِ يجب ان يؤخذ فيهِ على الوجه المؤدّي الى الغرض المقصود منهُ . وقد قدمنا ان ذلك الغرض هو تمييز المليح من القبيح والكامل من الناقص بقياسهِ على شخص الكمال والجمال القائمة صورتهُ في النفس . ولهذا يلزم ان يكون الناقد بصيرًا خبيرًا يتحرَّى الصدق في القول والاخلاص في النية منصفًا عادلاً باحثًا منقبًا قاصر النظر على ما قيل مغضيًا عمَّن قال راغبًا في احقاق الحق وازهاق الباطل لترقية العلوم واعلاء الآداب والفضائل . فمتى كان النقد على هذا الوجه تقرَّرت فوائدهُ وزالت اضرارهُ ولم يأبَ احتمالهُ الا من اخرجتهُ الخيلاء عن حدود العقلاء فادَّعى العصمة لنفسهِ في القول والفعل وحسب انتقاد الناس لاقوالهِ وافعالهِ اثمًا وكفرًا . ولا حق للمنتقَد عليهِ ان يحقد على الناقد اذا ابان معايب تأليفهِ ولم يستعرضهُ بمدح ذاتهِ وصفاتهِ ولم يتلطف اليهِ بالكلام الطيب او اذا لم يغضِ عن نقيصةٍ اتاها سهوًا او عمدًا او ما شاكل ذلك من دواعي العيب والملام . فغرض الناقد بيان الحق والصواب لا ملاطفة المنتقَد عليهِ ومداراتهُ وله الخيار في الملاطفة والمداراة او عدمها بلا عتاب ولا ملام . وهذا امرٌ يدلنا عليهِ العقل و يسلّم بهِ كبار العقول فكم من مؤلف من فحول العلماء ومشاهير المؤلفين نقل انتقاد غيرهِ الى كتابهِ مسلمًا بصحتهِ معترفًا بانهُ اصلاح لخطائهِ ولم يكن في كلام الناقد كلمة تلطف او تودُّد او ستر لهفوة او اعتذار عن تقصير . والشواهد على ذلك اكثر من ان تُعدّ فنضرب صفحًا عن ايرادها حبًّا بالاختصار

هذا وصف وجيز لحال النقد والناقدين عند الاوروبيين واما نحن المشارقة فقد خبت عندنا نار النقد مذ غابت عنا شمس معارف العرب وعلومهم وعفت النوائب رسومها .

ثم لما قيّض لها الله مَنْ احيا موانها وابان رُسومها كان عدد المؤلفين قليلاً وظلّ العلم محصورًا في فئة من الخاصّة الى عهد غير بعيد فلم يفتح باب النقد لقلّة المؤلفات وعدم المزاحمة والمباراة بين المؤلفين واشتغال الجمهور عن المعارف والعلوم بغيرها. ثم ما لبثت المدارس ان شيدت وتقاطر اليها الطلاّب حتى كثر اصحاب الاقلام ونشأت بينهم المغايرة والمنافسة ولكنهم لقلة البضاعة واشتداد الغيرة والأنفة جعلوا يتصدّون بعضهم لبعض لا بالنقد المؤدي الى ترقية علومهم ومعارفهم بل بالتخطئة المؤدية الى تصغير هم المؤلفين وتهافت الفريقين على الخاصة والمشاتمة والمهاترة والمشاجرة كما تشهد به مناظرات الكثيرين لهذا العهد. والانتقاد بالمعنى المراد لا يزال مجهولاً عند الاكثرين منا الى هذا اليوم فالمؤلف بحسب الناقد مخطئًا دائمًا والقارئ بحسبه متعديًا جانيًا متعدًا عن السعي والاجتهاد. وما ذلك الاّ لانهم يحسبون النقد والتخطئة امرًا واحدًا ولا يفرقون بين الامرين في الفعل والنية والحال ان منزلة النقد من التخطئة كمنزلة الفضيلة من الرذيلة. ولذلك صار الناقد البصير المخلص القول والضمير يحاذر ان يتصدّى لمؤلف بنقدٍ مخافة ان يثور به المؤلف فيثلم صيته او يقدح بعرضه شأن المنصوح مع الناصح في قول الشيخ السابوري

اذا لقيتَ الناس بالنصيحه فوطِّن النفس على الفضيحه

او ان يتجشم جهد البحث والتحوير ويتكلف عناء التنقيب والتنقير ولا يجد من القارىء الاّ لومًا عليه وتسخطًا وشتمًا به ان رماهُ المؤلف بذم او تنكيل. فيجني بالنقد على نفسه دون ان يفيد غيرهُ

اذا لم يُعِنْ قولَ النصوح قبولُ فكلُّ معاريض الكلام فضولُ

ولهذا يلقي الكاتب حبل النقد على الغارب او يمدح ويجل ظاهرًا ويضمر الضد باطنًا ويقول ما لي ولإفادة من يكره الفائدة والاكتراث بمن يسوءهُ اكتراث الناس به. وحينئذٍ يرضى مؤلف هذه الايام عنهُ ويستحسن قرّاء هذا الزمان فعله كأنهم تبعوا قول الحكيم

ومَن لا يكترث بكَ لا يبالي أحِدْتَ عن الصواب ام اعتدلتا

فلهذا ولما تقدّم من الاسباب كثر فينا المخطّئون وقلّ بيننا الناقدون او لم يوجدوا. ولاختلاط النقد بالتخطئة في حكم ابناء هذا الزمان ولكون نتيجة التخطئة الحط من قدر المؤلف ومن قيمة مؤلّفهِ بسبب قصور المعارف عندنا صار المخلص في خدمة العلم الذي لا يخاف فيها لوم اللائمين يأبى ان يتصدّى لنقد التآليف خوفًا من حط قيمتها عند القارىء وتثبيط همم المؤلفين. ومعلوم ان معظم المؤلفين ليسوا ممّن يستطيع الانفاق على تأليف الكتب وطبعها بلا عوض فاذا كان الانتقاد يعرّضها للبخس والكساد ويورثهم الفاقة والاملاق ويمنع غيرهم من التشبّه بهم كان الأولى اجتنابهُ والاستعانة بخيرٍ مما يؤمن ضررهُ حتى تستنير الافهام وتميّز اوجه

القوّة والضعف في نقد الكلام

ولذلك طالما كانت النفس تحدّثنا بنقد المؤلفات والمقالات جريًا على عادة الجرائد والمجلات الاوربيّة ونحن نمسكها عنه مخافة ان يضرّ بالمؤلفين فيقل عدد الراغبين في نشر العلوم والمعارف وتكسد سوق العلم بعد اخذها في الرواج وتفوت الغاية المقصودة من النقد حتى شاعت بيننا آداب المناظرة وأفرد لادباء المناظرين باب مخصوص في المنتطف وغيره يتمرّنون فيه على النقد ويجتنبون التخطئة ولا يتهجمون على غيرهم لمخالفته لهم في رأيهم ولا يحتقرون مقام مناظريهم ومنتقديهم. وما لبث الكتّاب ان ولجوا هذا الباب حتى ظهر بينهم اناس يضرب المثل بتأدبهم في المناظرة واعتبارهم لمقام المناظر وحسبنا شاهدًا على ذلك المناظرة المشهورة في الحياة بين الدكتورين البارعين شبلي شميل واسكندر باروديّ المعدودة مثالاً للمناظرات في اللطف والتأدب وجودة الاخذ والرد لهذا اليوم. فالمناظرة اتخذناها مع غيرنا من ابناء الوطن ذريعةً للتدرُّج الى شيوع الانتقاد وتعويد الكتّاب على احتمال حرّ لظاهُ والقرّاء على اعتبار قيمته وفائدته. وقد حاولنا ايضًا الانتقاد في بعض الاحيان حيث تؤمن مضارهُ المذكورة وذلك كما اذا ألّف بيننا اجنبيٌّ قد شاع الانتقاد في بلاده وغلب الظن عليه انهُ يقدرهُ حق قدره وكان بأمن من خسارة المال او اذا كان المؤلّف من ابناء الوطن النابغين السابقين الذين يحسن الوقوف على رأي غيرهم في تآليفهم وقد كبرت نفوسهم عن الخوف من كشف اغلاطهم وانفوا ان يحرزوا الصيت البعيد والاسم الحسن بالايهام والتهويل لا بالجد والاستحقاق. فامثال هؤلاء الافاضل كانوا يتقدمون الينا بانتقاد ما ألّفوا فنلبي طلبهم بما تيسّر من النقد ولم نلقَ منهم بغضًا ولا نفورًا. فيا حبّذا لو شاركنا رصفاؤنا الافاضل اصحاب الجرائد في اشهار الانتقاد في البلاد إمّا بفتح باب للمناظرة في جرائدهم يشترطون فيه حفظ آداب المناظرة على المناظرين او بانتقاد ما لا يضرُّ نقدهُ من المؤلّفات وذلك قد فعلهُ بعضهم فاستحقّ الثناء من خدمة العلم. على ان الاكثرين لم يعيروهُ التفاتهم بل ان بعضهم لا يزال في مقدّمة المعارضين له لاغراض في النفوس يعلمها الله. فقد انتقدنا منذ مدة رسالة اجنبيّة اللغة لرجل اجنبي الوطن في طنس سورية شهد من قرأها وقرأ الانتقاد انهُ لم يخرج عن الشروط في وجهٍ من الوجوه وانهُ مطابق لغاية الانتقاد السامية مبيّن الحقيقة حتى تحدّث به نادٍ مشهور من النوادي العلمية الاوربية ونلنا عليه وعلى سواهُ ثناءهُ وولاءهُ. وما ذكرنا هذه الاوصاف للانتقاد المذكور بيانًا لحالهِ بل ليعجب القارئ من ان وطنيًا مترجمًا لبعض الجرائد العربية الخاصّة بالاجانب شهّرنا عليه تشهيرًا وادّعى اننا اعداء شتّامون ثالبون لعرض صاحب الرسالة * وكذلك نقل الينا البعض عن لسان

مؤلف الرواية من الروايات انهُ يجب ان ننتقدها ولا نقتصر على تقريظها فانتقدنا ما انتقادًا وجيزًا لا غرض لنا فيهِ الاَّ غرض الناقد الشريف القاصد ترقي العلوم والفنون في الكمال والجمال فذكرنا محاسنها ومفاخرها وابنّا بعض عيوبها ومزاياها بكلام قاصر على ما فيها لا يتصدّى في شيء لمنشئها . فما كان من آخر جريدة أنشئت في هذا القطر الاَّ المعارضة لنا (كمعارضتها لغيرنا) على وجهٍ يغير الشحناء ويجعل الاصدقاء اعداء . ولينها عارضت بقولٍ يقبل او رأيٍ يعقل فكانت تفيد وتستفيد ولكن جعلت وجه معارضتها تعريضها بسلامة محرّرها من المرض وهي دعوى لم تثبتها شواهد الامتحان وقولها ان الرواية خالية من العيب او ان عيبها في كمالها وهي قول واضح البطلان لا يحتاج لتنقضهِ الى برهان فلا عاقل يسلّم ان تأليفًا يخلو من العيب ولو أَلّفهُ أعلم اهل الارض وأكتب ايّة البيان او ان عملاً يسلم من النقص ولو عملهُ اعظم رجال الزمان . ويقبح بارباب الجرائد اغفال الغاية العليا كترقية العلم ورفع شأن الأدب ومعارضةُ الصواب والمكابرة في الحق للحصول على غرض أدنى مثل التزلف الى غني والتردُّد الى صديق والتملق لوجيه ونحو ذلك من الغايات . فان كان هذا جزاء الناقد الصادق المخلص للحق ضميرهُ الواقف لخدمة العلم قلما من يد الجرائد المدّعية خدمة العلم وترقية المعارف فاذا ترى يكون نصيبهُ من غيرها . وان كنا نقابل كل ناقد بالذم والطعن لفاه انتقادهِ ونضمر لهُ العداوة ونوغر عليهِ الصدور لاخلاصهِ في القول وعدم اخذهِ بالوجوه فليعلم الشرق ان علم اهلهِ لا يكون الاَّ هذيانًا وتلفيقًا وانهُ لا ينبغ فيهِ غير من يكيل القول جزافًا ويتخذ لسان البذي ويدير قلم الطعن والهجو . وشواهد ذلك عديدة وادلّتهُ غير بعيدة

ليس لنبيّ كرامة في وطنهِ

ان شيل الكيماوي الاسوجي الشهير اكتشف اكتشافاتهِ الكيماوية الكثيرة وهو في احدى الصيدليات وافاد الصناعة باكتشافاتهِ فوائد لا تقدّر ولكن لم يشتهر اسمهُ في بلادهِ بل في البلدان البعيدة . وسنة ١٧٨٠ انتخبتهُ جمعيّة تورين العلميّة عضوًا فيها وذكر رئيس الجمعية اكتشافاتهِ الكثيرة واثنى عليهِ واطنب في مدحهِ وكان الملك غستافوس الثالث ملك اسوج حاضرًا في ذلك الاجتماع فتعجب من وجود شخص كيماوي عظيم في بلادهِ وهو لم يسمع بهِ واسف لانهُ لم يشبهُ على اكتشافاتهِ وقال لوزيرهِ ان يعطيهُ نيشانًا فبهت الوزير من هذا الامر لانهُ هو لم يسمع اسم شيل من قبل واخذ يفتش عن رجل اسمهُ شيل حتى وجدهُ واعطاهُ النيشان المذكور وتبين بعد ذلك ان شيل هذا الذي اخذ النيشان هو غير شيل الكيماوي فارث لسوء حظ العلماء